ومن الحب ما قتل

عماد حفظي- مصر

لمحتها قادمة من بعيد أبدا هي لم تتغير و إن مضى على لقائنا أول مرة خمس سنوات أو ما يزيد عن ذلك، و كأنها اكتفت فقط بتغيير قميصها وخرقة رأسها وسروالها الجينز وعادت للقائي اليوم، و كأن قطار الزمان توقف لوهلة و عاد اليوم ليكمل مسيره، حيتني من بعيد هكذا ألفت هي حال لقائي، و أكتفيت أنا بالصمت هكذا كصنم عجزت عن الرد، و كأنها تأبطت جوارحي وخرجت، فلا إمرأة أتقنت الحب إلا هي، و بعد صمت دام لبرهة من الزمن بعيد جلوسها لجواري على الكرسي الحديدي لحديقة المدينة، أطبقت بقبضة يدي اليمنى بأناملها الناعمة وتركت يدي اليسرى تتلاعب بغصن شجر عجوز تساقط غير بعيد مضجعي، كسرت هي صمتنا أخيرا قائلة:

- أتحبني يا عماد ؟

- أهناك ريب في حبي لك؟

- لا، فقط وددت نفسي سؤالك فأبيت منعها عن ذلك كما اني إشتقت لسماع كلمة ' أحبك' من فاهك هذا...

-نعم أحبك، هل اكتفيت الأن؟

-سؤال أخير..

تلعثمت و أحسست بضيق نفس داخلي يوجعني، فمدرك أنا تمام الادراك أن خليلتي هاته لا تنقطع منها الاسئلة كعين لا تنضب أبدا و إن كان هذا هو سؤالها الأخير فقد يجمع في طياته أمورا عدة.. دام صمت قبيح لثوان طاطأت جمجمتي وألبست نفسي ثوب الحبيب الخجول فصحت:

-نعم إسألي..

- أنا، أمك، الحياة اجمع الثلاث وصغ لي منها جملة تشفي غليلي، فلا أشبع أنا من كلامك العذب هذا، فهو فقط من قد يشفي نار الشوق لك مرات عدة إن طال غياب بعضنا عن الاخر..

أصبت حظا من التفكير قبل أن تصيح قائلة:

- عماد لازلت هنا أنتظر جوابك..

أحكمت قبضتي على أناملها أكثر فأكثر إلى أن أحسست بتدفق الدم في شرايين أناملها فتفوه عقلي ناطقا و مترافعا عن فاهي بعد أن طال صمته..

-قبل أن أصيغ جملة واحدة مما وددت نفسك سؤالي إياه أصرح لك سيدتي أنني قد أصيب من الأمر شيئا فأحسن الجمع بين الثلاث وأصيغ لمسامعك جملة مفيدة وقد أخطئ فأصيغ جملة لا فائدة من سماعها و قد ترمين بها لأقرب قمامة من جوهرك، قولي عنك أنت و أمي الراحلة أنكما حبتا عيناي السودوتان تظهران لي جمال الكون من حولي و جمال كليكما قبل كل شيء وبعد أن فقدت أمي فقدت

إحدى عيناي هاته فضعفت و خارت قواي واكتفيت النظر بالعين الواحدة والتي هي أنت... أترضين الرحيل يوما فتتركيني عجوزا أدرد عاجزا أعمى يستسعد من الغير يد العون و إن إجتمع الكون من حولي ما صار ولو عكازا أتكئ عليه ليل نهار فينسيني فراقكما، الحياة، فكرت، حياتي أنت و أحلامي فأرجوك لا تحذفي الحرف الثاني من كلمة أحلامي يوما فتصيرين ألامي...

إرتسمت إبتسامة خجولة على وجهها وتركت قبلة خفيفة على خدي أرخيت معها قبضتي فإنطلقت أناملها كحمامة بيضاء انفتح قفصها فطارت بعيدا.... لازالت هي ترسم إبتسامة ملائكية على وجهها ولازلت أنا ملازما للصمت بعد الإجابة على رهط أسئلتها اللا متناهي، بادرت هي بالحديث مجددا قائلة:

– إلى متى صمتك هذا يا عماد فهو يقتلني ..

– و إلى متى سأظل أنا مصابا بحمى حبك يا فتاة ..

– أوحقا يا عماد أنت مصاب بحمى عشقي ؟

– مصاب نعم، بل و عجلوا بإدخالي غرفة الإنعاش..

– كلامك هكذا يقتلني أكثر فأخاف أنا أن أخسرك و صرت أفضل صمتك، أرجوك زر أقرب صيدلاني واقتني لك وصفة أدوية تقيك شر حمى حبي ..

– أولست تدرين أن وصفات الطبيب لم تعد تنفع مع حالتي ، فصارت وصفاتهم كمن يقدم الدواء لشخص ميت ..

– أقسم أني أعجز دائما عن الرد، فقط أخبرني الأن من أنا بالنسبة لك، جوابك الأول لم يشبع رغبتي من كلامك العذب!

– أنت من نظر الأعمى لجمالك و أسمعت صوتك من به صمم و أنت من تحت أقدامها الجنة وأنت من وراء كل رجل عظيم ..

ظلت فاغرة الفاه لهنيهة قبل أن ترمي بجسدها لعناقي بقوة إلى أن أحسست بنفسها ودقات قلبها وهمست بأذنها قائلا 'أنت حياتي' ...

مضيت اليوم نحو بيتها أتأبط يد والدتي و باقة ورد ذابل بأن قالت يوم لقاءنا الأخير والحزن قد شوه ملامحها :

– إن كنت حقا تحبني يا عماد فأطلبني زوجا لك من والدي، أنت تعرف عنوان خربتنا، أليس كذلك !

كانت محقة في كلامها ، فلعل الوقت قد حان أخيرا لأجلس قبالة شخص غريب و أطلب يد ابنته للزواج ، و إن كانت أمي تعترض فكرة الزواج عن حب وعن كراهية أيضا، و تقول أن الحب لن يجعلني أبدا أجد الطعام على المائدة فور عودتي من العمل مساء، كانت هي تماني النفس بجعل ابنها يتزوج زواجا تقليديا كزواجها من والدي، على مضض أقنعت أمي بفكرة الزواج من فتاة أبادلها مشاعر الحب، لأفلح أخر المطاف بجعلها تتنازل عن قناعاتها وتلبس جسدها لحافها وترافقني لأرمي بنفسي قبالة والد صديقتي، كان أبا لطيفا حقيقة الأمر فقد قبل

زواجي من ابنته شرط أن أحضر المهر بعد أسبوع أو أحضر عرس ابنته من رجل أخر إن حدث و تأخرت بجمع مبلغ المهر في الموعد المحدد، الأمر كله بين يداي، هكذا قال قبل أن يصافحني كإشارة منه بأن الوقت قد حان لأتأبط يد أمي وأغادر، وحقيقة الأمر أني لم أغادر وأمي فقط بل حملت معي مشاعر الحزن والكآبة، فقد كان مبلغا باهظا جدا و إن بعت ملابسي المهترئة كلها وساعة يدي الرخيصة وهاتفي 'سامسونغ' وألة غسل الملابس ، لن أنجح ولو بجمع ربع ذاك المبلغ!

ألم أقل أنه أب لطيف !!

رحت أفكر كيف سأفلح في جمع ذاك المبلغ فحقا أنني أحببت بنته البكر وقد أفعل المستحيل لأجعلها زوجة لي أكمل درب حياتي لجوارها، نعم المستحيل يا صاحبي، طالعت ذات يوم مقولة لست أذكر صاحبها حيث قال 'الحب للأقوياء أما الجبناء فتزوجهم أماتهم' ، فخشيت أن أكون جبانا قدامها هي بالذات في حين لا بأس إن قال عني الأخرون عداها هي جبانا ومأفونا فعلاقتي بهم سطحية لا تتعدى حد إلقاء السلام أو الرد أو أن يسألني أحدهم عن عنوان ما ...

الوقت يمضي ومستغرق أنا في أمور تافهة و لست داريا حتى الأن من أين أحضر مقدار المهر .. بعد مرور أسبوع و بالموعد المحدد سلفا دلفت بيت والدها بخطى متثاقلة و حقا كنت قد جلبت معي المبلغ المتفق عليه ، قبل الأب تزويجي من ابنته وراح يعد المال، في حين انطلقت هي نحوي مهرولة كغزالة أفلتت من أنياب نمر مفترس، كانت تود هي ضمي لصدرها غير أني تلكأت بكل هدوء وامتنعت

عن حضنها و إن كنت حقا بحاجة لعناق يدوم الساعات ألتصق فيها بجسدها فيخالنا الكل جسدا واحد، مستغربة سألتني علة رفضي عناقها ، أخبرتها أن جرح نزع كليتي و بيعها لتحصيل مال المهر لم يندمل بعد ..